النقد التطبيقى عند عبد الرحمن شكرى

(للدكتور محمد رجب البيومى)

عبد الرحمن شكرى أحد أعلام الأدب المعاصر ، وأقولُ الأدب المعاصر قاصدا الأدب بشقّيه النثر والشعر ، لأن الذين تناولُوه بالدراسة قد اهتمّوا بريادته الشعرية ففسحُوا المجال لتحليل قصائده الـمُبدعة ، وظهرت رسائل جامعيّة ، وكتبٌ مستقلة تخص هذا الجانب بالشرح والتعليل ، كما تشيرُ إلى ما تضمنتْه ظروفُ حياته من غبْنٍ ظالم لحِقهُ فى مجال عمله الرسمّى تارة ، وفى دُنْيا النقد المغرض تارةً أخرى ، ولا أظن هذه الدراسات كافيةً فى إيضاحِ أثره التجديدىّ البارز ، إذ لا يزالُ نصيبه منها أقلَّ من نصيب زعماء التجديد الشعرى من أمثال خليل مطران وعباس العقاد وغيرهما ، ولعلَّ طبيعة شكرى قد ساعدتْ على إهمال دراسة شعره فى حياته إذ كان عزوفاً عن الأضواء والبوارق ، ولم يُشارك فى السياسة فى عهدٍ كانت فيه هذه المشاركة باباً من أبواب الذيوع الرنان ، وقد أحسّ بذلك فى أعماقه فعبّر عن إحساسه بهذا البيت المُوجع :

أألقى الموتَ لم أنْبُهْ بِشِعرى ولم يعلم جميع الناس أمرى ؟

أما بعد رَحيله فقد بدأتِ الدراسات المنصفة تضعُ شعره موضِعَهُ الريادى الصحيح ، ولكنّ شكرى الناقد لم يجدْ من الدارسين من يسلّط الضوء الثاقب على مجهودِه النقدى فى صورة شاملة محيطة . ولعلَّ الناقد الكبير الأستاذ الدكتور محمد مندور كانَ أوّل من خصّ الشاعر الكبير بدراسة تحدّدُ اتّجاهه النقدى ، وذلكَ فى فصلٍ قيمّ نشره أوّلا بمجلة (المجلّة) ثم جمعه فى كتابه الشهير (النقد والنقاد المعاصرون) ولكنَّ دراسة الدكتور مندور قد اعتمدتْ على مقدّمات دواوينه الشعرية وحدها لأنّ أكثر آثار شكرى النقدية كانتْ متفرقةً فى الصحف والمجلّات ، ولم يُتحْ له أن يُلمّ بها على وجه شامل ، ومن هذه الآثار ما كتَبهُ شكرى عن الشعر العربى بمجلات المقتطف والرسالة والثقافة حين تحدّث عن أمراءِ الشعر فى العصر العباسى من أمثالِ أبى تمام وابن الرومى وأبى نواس والبحترى

وأبى العلاء ومهيار والشريف الرضى ، ثم عن النسيب والرثاء والفكاهة فى الشعر العربى ، إذ كتب فى هذا المجال فصولا شافية ، إذا قلَّتْ صفحاتُها فقد كثرتْ أفكارها ، وتعدّدت مزاياها ، لأن شكرى حين يكتبُ فصلاً عن مِثل المتنبى ، لا يشغل نفسهُ بترداد المأثور من آراء النقدة فيه ، بل يضُعه فى ميزانه النقدى ، وفى ضوء مفهومِه الدقيق لمعنى الشعر ، ودوْره الكاشف عنْ أعماق النفس ، وصدقه فى التعبير عن حقائق الكون ، وبُعدهِ عن مزالق التكلف الذهنى والعبث اللفظى ، كما أن شكرى قد خاضَ معركة أدبيّة ، حين اشتجر الجدال بين القديم والجديد على صفحات الرسالة ، ولكنَّ صاحب مجلة الرسالة نسبها إلى (أحد أساطين الأدب الحديث) ليشيرَ إلى منزلةِ كاتبها الكبير ، وقد كانَ العزوفُ عن الضجيج الصاخب مبعثَ هذا التستّر الزاهد فى أكثرِ ما كتبه شكرى من فُصوله الأدبيّة فى الرسالة والبيان وعكاظ والمقتطف ، ولكنَّ المتابعين للحركةِ الأدبيّة مِن ذوى البصر النافذ كانوا يَعرفون مَنِ الكاتب المقنّع ؛ إذ لابدَّ للعطر أن يفوح ، ومضَى الزمنُ فطُويت هذه الآثار فى الصحف ، وذهب العارفونَ بحقيقة الناقد الكبير ، وصارَ على من يعرفُ أنْ يُعيد للجيل الناشىء هذه الآثار مشفوعةً بما يقدر عليه من الضوء الكاشف ، وذلكَ ليسَ غُنْماً لتراث الناقد الراحل ، قدر ما هو غنمٌ للدارس الناشىء إذ يجدُ ما يُساعده على البصر النقدى السديد ..

قلتُ إن الناقد الكَبير الأستاذ الدكتور محمد مندور قد رجَع إلى مقدّمات دواوين الشاعر فيما كتبَه عن دوْرِه النقدى حينَ لَخَّص اللُّباب من هذه المقدّمات تلخيصاً بصيرا ، فحدّده فى نقاط تتركّز فيما يلى ببعض التصّرف ، بعْدَ أن حدّدَ دورَ الرائد الكبير فى الشعر التجديدىّ فنصّ على أنه كان يجمع فى شعره بين التيّارَيْن اللذيْن انفردَ بكلٍّ منهما زميلاَه الكبيران عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ويعْنى مندور بهما : التيار العاطفىّ الشاكى المتمرد وهو تيار المازنى ، والتيارُ الفكرى الذى تميزّ به العقاد فى شعره العقلىّ الإرادى . وكأن كلاًّ من هذين الشاعرين – كما يقول مندور – قد أخذَ عن شكرى التيّار الذى يُلائمه ، أما شكرى فقد احْتفظَ بالتيّارَيْن ، وسلّطَ أحدهما على الآخر ، فهو شاعرٌ عاطفىٌّ حسّاس ، ولكنه سلَّط عَقْله على عواطفه ومشاعر حياته ، وما فيها من رغبةٍ وتلهف فجاءَ شعرُه أصيلا متميّزا بطابع خاص .

أما النقاطُ المركّزة التى تُصوّر نظرة الشاعر إلى الشعر فقد بَلْورها الدكتور محمد مندور فيما يلى [١] – نقلاً عن المقدمة المستفيضة التى صدّرَ بها شكرى الجزء الخامس من ديوانه :

١ – يمتازُ الشاعر العبقرىّ بذلك الشّره العقلىّ الذى يجعله راغباً فى أن يُفكّر كلَّ فكرٍ وأن يحسَّ كل إحساس .

٢ – الخيال هو كلّ ما يتخيّله الشاعر مِنْ وصفِ جوانب الحياة وشرحِ عواطف النفس وحالاتِها ، والفكرِ وَتقلّباته ، والموضوعات الشعرية ، وتباينها وبواعثها .

٣ – التشبيهُ لا يُرادُ لذاته كما يفعلُ الشاعر الصغير ، وإنما يُرادُ لشرحِ عاطفة ، أو توضيحِ حالةٍ أو بيان حقيقةٍ .

٤ – أن أجلَّ الشعر هو الذى خَلا مِنَ التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية ، وأجلّ المعانى الشعرية ما قيل فى تحليل عواطف النفْس ووصف حركاتها كما يشرّح الجسم .

٥ – الشعر هو ما أشعرك ، وجعلكَ تحسّ عواطف النفس إحساساً شديدا ، لا ما كانَ لُغزا منطقيا ، أو خيالاً من خيالات مُعاقرى الحشيش ، فالمعانى الشعريّة هى خواطرُ المرء وآراؤه وتجاربُه وأحوال نفسه ، وعبارات عواطفه . وليستِ المعانى الشعرية كما يتوهمُ بعضُ الناس هِى التشبيهاتُ الفاسدة ، والمغالطاتُ السّقيمة كما يتطلّبه أصحابُ الذوق القبيح .

٦ – قد يُغرىَ العبقرىّ باستخراج الصّلات المتباينة بين الأشياءِ فَتقصُرُ أذهانُ العامة عن إدراكها .

٧ – إن قيمةَ البيت فى الصّلة بين معناه وبين موضوع القصيدة ، لأنّ البيت جُزءٌ مكمل ولا يصحّ أن يكونَ البيتُ شاذّا خارجاً عن مكانه من القصيدة بعيداً عن موضوعها ، وينبغى أن ننظر إلى القصيدة مِنْ حيثُ هى شىءٌ فردٌ كاملٌ لا من حيث هى أبياتٌ مستقلة .

---

(١) النقد والنقاد المعاصرون للدكتور محمد مندور ص ٥٦ .

٨ – مثلُ الشاعر الذى يُعْنَى بإعطاء وحدة القصيدة حقَّها مَثَلُ النقاش الذى يجعلُ كلّ نصيب من أجزاءِ الصورة التى يَنَقُشها من الضوء نصيباً واحدا ، وكما أنّه ينبغى للنقّاش أن يميّزَ بين مقادير النور والظلام فى نقشه ، كذلكَ ينبغى للشاعر أن يُميّزَ بين جوانبِ موضوع القصيدة وما يستلزمُه كلُّ جانبٍ من الخيال والتفكير ، وكذلك ينبغى أن يميّزَ بين ما يتطلُبه كل موضوع ، فإنّ بعض القراء يُقسّم الشعر إلى شعر عاطفة وشعرِ عقل ، وهى مغالطةٌ كبيرةٌ لأن كلَّ موضوع من موضوعات الشعر يستلزمُ نوعاً ومقداراً خاصا من العاطفة [كما يستلزم الاحتكام إلى العقل] .

٩ – للشاعر أن يستخدم كلّ أسلوب صحيح سواءً كان غريباً أو معهودا أليفاً ، وليس له أن يتكلف بعض الأساليب ، ولا أنكر أنّ الشعر من قواميس اللّغة ، ولكنْ له وظيفةٌ كبرى غيرُ وظيفة القواميس ، وعاطفةُ الغريبِ الذائِعة بيْن فئةٍ خاصة هى ردُّ فعلٍ سببه ولُوع شعراء القرنيْن الماضيَيْن بالركيك من العبارات ، وقد وجَدتُ بعضَ الأدباء يقسم الكلمة إلى شريفةٍ ووضيعة ، فكلّ كلمةٍ كثر استعمالها صارتْ وضيعة ، وكلُّ كلمةٍ قلّ استعمالها صارتْ شريفةً ، وهذا يؤدّى إلى ضيقِ الذوق وفوضى الآراء فى الأدب .

١٠ – فسدت آدابُ العرب حين سادَ الجهل فى الممالك العربية فى العصور الأخيرة ، وسُنَّة التقّدم تقتضى الاطلاع على ما يُستحدث فى الآداب والعلوم ، وكلّما كان الشاعُر أبعدَ مرمىً وأسمَى روحاً كان أغْزَر اطّلاعاً فلا يقصرِ همّتَه على درسِ شيءٍ قليل من شعرِ أمّةٍ من الأمم ، فإنّ الشاعر يُحاول أن يعبّر عن العقل البشرىّ والنفس البشرية وأن يكونَ خلاصة زمنِه وأن يكونَ شعرُه تاريخًا للنفوس ومظهر ما بلغته فى عصره » .

هذه بعض الآراء النقدية التى سطّرها الشاعر الكبير فى مقدمة الجزء الرابع ، وأوجزهَا الدكتور مندور فى دقّةٍ كاشفة ، وبديهىٌّ أن هذه الآراء الآن تُعدُّ من المسلّمات ، ولكنّها كانتْ حين سطّرها عبد الرحمن شكرى ذاتَ مفاجأةٍ للكثيرين ، ونقصدُ بتسجيلها الآن شيئيْن هامين ، أوّلهما حفظُ الريادة النقدية لهذا العملاق الذى بَذَر البذراتِ النافعة فآتتْ أكلها مِن بعده ، ومهّدتِ الطريقَ

لفهمٍ صحيحٍ لا سبيل إلى الانحراف عنه ، وثانيهما أن النقدَ التطبيقّى الذى قامَ به شكرى حين تحدث عن أعلامِ الشعر فى الأدب العربى يُصَور اتجاهَه النقدى تمامَ التصوير ، فكلّ ما قررَّهُ من القواعد الأدبيّة كان رائدهُ فى الحكمِ على الآثار الشعرية هُبُوطاً وارتفاعا ، ومقالاتُه النقدية التطبيقيّةُ تكفى وحدَها لتكوين فكرةٍ صائبة عن رسالةِ الشعر فى الحياة ، وعن بلاغَة الصّدق حين يُخْلِصُ الشاعر فى تعبيره عن حقائق النفس ، وعن صحةِ الخيال حينَ يسير فى منحاه السليم ، وفسادِه حين يكونُ تلفيقاً وافتعالا ، وقد رأينْا بعضَ الدّارسين يُجيد الحديث عن القواعدِ النّقدية ، ويُسهب فى تقرير أصولها إسهاباً يَظن به القارئ أنّه ملك الزمام فى موضوعه ، حتى إذا انتقل هذا الملِىءُ بمعرفةِ المقررّات النقدية من القاعدةِ إلى التطبيق بانَ عوارُه ، وظهر خللَ القياس فى تطبيقه ، أما شكرى فقد فتح الله عليه بالنقد الصائب ، فى وضوح ساطع شفافٍ ، لأنّ وضوح الفكرةِ يدلّ على اقتناع الكاتب بها ، وتغلغلِها الصادق فى أعماقه ، وهو لا يُعانى شيئاً فى تَسْطيرها بل يطّرد به القلم على الصحيفة كما يَجْرى الماء العذب فى النهر الدافق ، كما أنّ قارئ هذا النقد التطبيقى يَدهشُ لسعةِ اطّلاع شكرى على الشعر العربى فى شتى عصوره ، وهو اطلاعٌ طبيعىٌّ لشاعر متّسع النفس ، رصين التفكير ، قوىِّ الخيال ، وقد غابتْ حقيقةُ هذا الاطلاع الشّامل على الأدب العربى عن الناقدة الفاضلة الدكتورة سهير القلماوى ، فذكرتْ فى مقدمة الجزء الثالث من أعلام الأدب العربى المعاصر فى مصر [١] بصدد الحديث عن تأثّر شكرى ببعض السابقين ما نصه [٢] :

« ولكنّ طبيعةَ شكرى من جهة ، وقلّةَ اطلاعه على الشعر القديم من جهةٍ أخرى قد جَعلَا هذه الظاهرة – ظاهرة التقْليد للشعر القديم – قليلةَ الظهور فى شعره ، ولعلّها لا توُجَد إلاّ فِى شعره المبكّر وفى ديوانه الأوّل ، ولعلَّ ظاهرةَ

---

(١) سلسلة ببليوجرافية وضعها الدكتوران حمدى السكوت ومارسدن جونز وخصّا الحلقة الثالثة بعبد الرحمن شكرى .

(٢) ص : ٨٣ من الكتاب السابق .

الأخذِ من التاريخ والأحداثِ الكبرى موضوعات الشعر تؤّيد أنّ شكرى لم يكنْ يقف كثيراً بالقديم العربى »

لم تكنْ ظروف الدكتورَة سهير القلماوى قد أتاحتْ لها الاتصالَ بالشاعر الكبير لتعرفَ إلمامه الدقيق بالشعر العربى فى جميع عصوره ، ولو أنّها قرأتْ مقالاتِه بالرسالة والثقافة والمقتطف عنْ هذا الشّعر العريق لرجعتْ عن استنتاجِها المتسرّع ، وما كانَ لشاعرٍ كبير يملكُ هذه القدرةَ الفائقة على الصياغة الشعرية العريقه فى أكثر قصائده إلا أنْ يكونَ ذا إلمامٍ شامل بالتراث الشعرى للعرب ، وإذا كانتِ الناقدة الفاضلة لم تجلسْ إلى شكرى لتسبر محيطه الزاخر ، فإن زميله الناقد الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قد قال عنه [1] :

« عرفتُ شكرى قبل خمس وأربعين سنة ، فلم أعرفْ قبلَه ولا بعده أحداً من شعرائنا وكتابنا أوسعَ منه اطلاعاً على أدب اللّغة العربية وأدبَ اللّغة الانجليزية وما يُترجم إليها من اللّغات الأخْرى ، ولا أذكُر أنّى حدّثتُه عن كتابٍ قرأتُه إلاّ وجدتُ منه علما به ، وإحاطةً بخير ما فيه ، وكانَ يُحدثنا أحياناً عن كُتُبٍ لم نلتفتْ إليها ، ولا سيّما كتب القصّة والتاريخ ، وقد كانَ مع سعةِ اطلاعه ، صادقَ الملاحظة ، نافذَ الفطْنة ، حسن التخيّل ، سريعَ التمييز بين أنواع الكلام ، فلا جرَم أن تهيّأتْ له ملكة النقد على أوفاها ، لأنه يطّلع على الكثير ، ويميّز ما يستحسنُه وما يأباه ، فلا يكلّفه نقدُ الأدب غير نظرة فى الصفحة أو الصفحات يُلقِى بعدها الكتاب ، وقد وَزنَهُ وزناً لا يتأتّى لغيره فى الجلسات الطوال » والعقاد من أكثرِ أدباءِ العربيّة اطلاعاً على الآثار الفكرية فى القديم والحديث ، فإذا قالَ إن شكرى قد قرأ ما لم يقرأْه العقاد ، فما ظنّك به ؟

وحين نَلِج إلى القول فى منحَى شكرى النقدى ، فإننا نجدُه ذا استقلالٍ تام فى مفهومه الاصطلاحى ، فهو – مثلا – حين يتحدثُ عن أنواعِ النسيب والتشبيب فى الأدب العربى ، لا يتقيّد بالمتعارف من أقوالِ اللغويين والنقادِ الأقْدمين ،

---

(١) مجلة الهلال : أول فبراير سنة ١٩٥٩ م .

بل يستقلُّ بتفريعٍ خاص ، هو من ابتكارِه الذاتى ، إذ يرَى أنّ من النسيب ما يرجع إلى العشق ، ومنه ما يرجعُ إلى الوجدان من غير عشق ، ومنهُ ما يرجع إلى المحاكاةِ والمجون ، وما يرجعُ إلى التصوّفَ وما يرجع إلى التمثيل المسرحى ! والفرقُ بين نسيب الوجدان ونسيب العشق يحتاجُ إلى إيضاح ، لأنّ التّلاحم بين النوعيْن يجعلُهما نوعا واحدا ، فشكرى يقول [١] :

« قد يخلطُ الناقد بين نسيب العشق ونسيب الوجدان لأنّ الأولَ جزءٌ من الثانى » ومعنَى ذلك أنّ هناكَ نسِيباً لا يتّصلُ بفتاةٍ معيّنة ، ولكنّه وحىُ وجدان صادق يعشقُ الجمال المطلق دون ارتباطٍ بمثالٍ إنسانىّ خاصّ باسمه وصفته ! وهذا غير مستغرب إذْ كثيراً ما يعشق الإنسان فتاةً خياليّة يرسم لها أوصافاً خاصةً وإن لمْ يرها عيانا ، وَيظَلُّ عالقا بها كأجمل أملٍ يحلم به » . والالتفاتُ إلى الفوارِق الدقيقة بين أنواعِ النّسيب الّتى عدّدها شكرى يدلّ على وقوفه على نماذجَ شتّى من ألوان النسيب فى الشعر العربى ، جمعها الكثيرونَ تحت مُسمّىً واحد ، ورآهَا شُكرى بمنظاره الدقيق ذاتَ اختلافٍ صريح . وقد تعرّضَ بعض النقاد إلى تحديد معنىً للنسيب يخالف معنَى الغزل . كما يخالف معنى التشبيب ، كما رأى بعضٌ آخَر أنّ هذه المسميات تنطبقُ على معنى واحد ، ومنهم ابن رشيق فى العمدة ، وللجاحظ والتبريزى وغيرهما نقولٌ شتى لا تنتهى إلى تحديد ، ولا شكّ أن شكرى قد قرأ كلَّ ما قيل ، و لم يشأْ أن يتقيد به ، بل فصّلَ الأنواعَ وفق تَصوُّرِه الخاص ، وقد جعلَ أدبَ المجون نسيباً ولكنّه لم يرتفعْ به إلى مستوى النسيب الجيد ، كما عَدّ غَزلَ الصّوفية نوعاً من أنواع النسِيب ، وهو غزلٌ ترك النقادَ فى حيرةٍ لا تهدأ ، لأن اتخاذَ الوصف الأنثوىّ رمزاً إلى معنىً روحى يحتاجُ إلى شفافية صافية تربطِ بين القريب والبعيد .

وقد تابع شكرى عصورَ الأدب ليدلّ على نصيب الجاهليّين من نسيب العشق ونسيب الوجدان معاً وقد قالَ عن امرئ القيس أنّ أكثَر نسيبه نسيب صنْعةٍ ووصفٍ للذات ثم حكم بأنّنا إذَا أردنا أن نجمع مجموعةً من شعر النَّسيب فى اللّغة العربية نفاخرُ بها اللغات الأخْرَى فلنتجهْ إلى شعر العذريّين من أمثالِ جميل

---

(١) المقتطف : ابريل سنة ١٩٣٩ م .

وكثيّر وقيس وأبى صخرٍ الهذلى وعروةَ بن حزام لأنّهم أصحاب الوجدان الصادق، وشعرهم خالٍ من رَوْعة الصنعة ويدل على أن قائله شاعرٌ بطبعه وخيالِه ووِجدانه ، كما يدلّ على عاطفةٍ صادقة تأخذُ المألوفَ من مظاهر الكون والخليقة من تغريد الطيور فى وضح الفجر ، ومنُ هبوب النسيم ، ونضرةِ الزهر ، وهطول المطر ، وانتفاضِ العصفور لتعبّر بها عن ذكريات القلب وأمانيه ، وقد أحسنَ شكرى الاستشهادَ الشعرى حين اختارَ لبعض هؤلاء ما يؤكد منحاه ، وقد انتهى بعد تقرير هذه الحقائق إلى قوله [١] :

« وقد كانَ من رأينا أنّ شعر العاطفة والوجدان يتقاربُ فى جميع اللّغات ، وإنمّا الذى يتباعدُ فى اللّغات هو شعر الطبيعة والمحاكاة ، لأنّ أساسه العرفُ والاصطلاح والذوق الإقليمى ، أما شعرُ العاطفة والوجدان فهو واحدٌ فى كل إقليم ، وإنك لو نقلتَ الشعرَ الذى استشهدنا به من شعر قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح إلى اللّغاتِ الأوربية لطرب له القراء كما يطرب قراء العربية إذا نقل إليهم شعر العاطفة والوجدان من اللّغات الأوربيّة نقلا صحيحا لا سخيفا » .

ثم ختم حديثه النقدى بقوله [٢] « ليسَ المحتوم أن يُطالب الشاعرُ بعشق كى يجيد النّسيب ولكنه مطالبٌ بوجدان يصدح ويعبّر عن نواحى تلك العاطفة بمزاجٍ فنى ، وبصيرةٍ سيكولوجية تمكّنه من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها » .

ومن أجلِ اهتمامِ شكرى بشعر الوجدان حَظِى الشريف الرضىّ بتقديره وقالَ عنه أنّه كان أقرب شعراء عصره إلى الأقدمين ، حيثُ سلِم مِن حكم الصنعَة وإعمال القريحة المتأنيّة فنجا من مغالاة شعراء زمانه إذا كانتْ طابعاً لبعض البارزين ، وهو يتّخذ أدواتِ البيان بحيثُ لا يُحسُّ القارئ أنها أثّر من آثار الصّنعة ، ومن هذه الأدوات ، دلائل الاستفهام والنفى والتعجب حيث يكسبها الشاعُر طابعًا خاصًّا لا تكادُ تجده عند غيره ، ثم ضربَ شكرى الأمثلة الدّالة

---

(١) المقتطف السابق : ص ٤٤١ .

(٢) المقتطف : ص ٤٤٤ .

على استخدام هذه الأدوات ببراعةٍ وحذق ، وقد ذهبَ إلى أنّ قصائد الشريف فى مَراثى جدّه الحسين بن على من حيث هى شعرٌ وجدانى أقلّ من نظائرها فى الديوان ، واستدركَ قائلاً وقد أكونُ مخطئا إذْ لَا ينقصها التحرّق والتأسف ، ولكنّ قيمةَ الشعر الوجدانىّ ليستْ بالتحرّق والتأسّف فحسب ! ولعلّى أميلُ إلى أنّ مراثى الحسين هذه لم تفقدْ قيمتَها الوجدانية كما ذهب شكرى ، ولكن تكرارها المتتالى هو الذى جعل معانيها مألوفةً لدى قارئها المتابع ، ولو اقتصرَ الشّريف على مرثِيَةٍ أو مرثيَتَيْن لجلَّى وأبدع ، ولكنّ الذكريات السنوية دفعتْه إلى التكرار فَخَبَا بعض البريق ! أمّا مَا أبدعَ فيه شكرى حقًّا بصدد حديثه عن الشريف فهو هذه الموازنات النقدية الرّائعة بين الشريف ونظرائه من أئمة الشعر العربى ، إذ يُحسّ القارئ الدارس أنّ الناقِد الكبير قد درسَ الخصائص الدقيقة لكل شاعرٍ فعرف مناحى ضعفه ، ومظاهر قوته ، مستوعباً كلَّ ما يقال عن تغلغلٍ مُوغلٍ إلى أدق السمات ، ثم أخذ يوجز ملاحظاتِه فى موازناتٍ قوية تُصيب مرماهَا فى أقلِّ ما يمكن من العبارات ، ولو أرادَ شارحٌ مستطرد أن يَبسطها لملأتْ على إيجازِها عشرات الصفحات ، هذه الموازناتُ الدقيقة تتكرّر فى شتّى الفصول لا لتُعيد ما سبق بل لتضيف الطريفَ المتجدّد ، وما تَيَسَّر ذلك للناقدِ الملهم إلاّ عنْ بصيرةٍ نافذة ، لأنّ الاطلاع الشامل دونَ هذه البصيرة النافذة لا يَهْدِى إلى الهدف الصائب ، وكم قرأنَا أسفارًا ممتلئة تخصّ شاعرا واحداً ، ولكننا بعد عناء القراءة الممتدة لا نجد غير المتردَّد الذائع ، وكأنّ الدارس ناسخٌ لا منقّب ، فإذا أرادَ القارئ مثلا لما نَعْنيه من هذه الموازنات ، فليستمعْ إلى ما سطّره شكرى فى مقدمةِ بحثه عن الشريف الرضى حيثُ يقول : « الشريف الرضىّ لا يُضارِع ابن الرومى فى تحليله المعنى وتقصّيه إياه ، ذلكَ التقصّى الذى ساعد ابن الرومى على إجادةِ الوصف ، سواءٌ كان وصفاً لهمسات النفس وخطراتها ، أو لأوجهِ الطبيعة والمرئيات ، ولا يُضارع الشريف أبَا تمام فيما يُتقنه من فلتاتِ الصنعة النادرة التى تأتى بالأبيات الفذّة الآخذة بمجامع القلوب ، ولا يضارع المتنبى وأبا العلاء فى التفكير فى النفس والحياة وأخلاقِ الناس ، ولكنّ للشريف نصيباً لا يُستهان به من هذه الميزات ، وهو مع ذلك قد اختصّ بالشعر الوجدانى ، ولهؤلاء الشعراء جميعا ولغيرهم شعرٌ وجدانى ، ولكنّى أحسب أن الشريف قد بزّهم جميعا فى هذا

الضرب من الشعر ، وقد أمِن ما يعتور ابن الرومى أحياناً من الفتور بسبب ما قد يبدرُ منه من الإفراط فى التقصّى والتحليل ، وتتبّع الجزئيات ، وأمِنَ الشريف زلَلَ المبالغة فى الصنعة الذّى قد يقع فيه أبو تمام إذا أفرطَ فى حبّه للاختراع والتوليد وإتيان ما لم يأتِ به أحدٌ من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة ، وأمن الشريف المبالغةَ غير المقبولة والمعاظلة كما فى بعض شعر المتنبّى ، وأمِن أيضا ما قد نرىَ فى ديوان « سقط الزند » من مبالغات المتأخرين التى لا تعبِّر عن وجدان صادق ، ولو قارنتَ بين شعر الشريف وشعرِ معاصريهِ لوجدتَ فرقاً كبيرا فى الأسلوب والذوق ، فإنّ الصنعة قد انتشرتْ فى عصره وغَالَى فيها الشعراء من غير سَيْلٍ دافقٍ من العاطفة والوجدان يلبسها صدق الإحساس [1] » .

فهذه السطورُ القليلة كشفتْ عن محاسنِ ابن الرومى وأبى تمام والمتنبىَ وأبى العلاء كما وضّحت مآخذهم جميعاً ، ولئن تركَ شكرى البحترى وأبا نواس وغيرهما ، فإلى حين ، حيث يعود إلى أعيانِ الشعر بالتحليل الكاشف فى أقلّ ما يتطلّب من الأداء ، ونحن نعتقدُ أن هذه الموازنات تؤدّى رسالتها النقدية فى إيضاحِ السمات الدقيقة لهؤلاء ، فهى تميّز كلّ شاعر بدلائل تشير إليه وتحدّد مناحى الجودة والهبوط فى أسلوبه البيانى ، وإذا استقامَ للقارئ رأىٌ محدّد فى كل أديب يقرأ لهُ فقد انتقلَ إلى منزلةٍ أعلى ، وأحسَّ بجُرأة تدفعه إلى الموازنة والتعليل .

وقد كثُر الحديث عن أبى تمام والبحترى فى مجالِ الموازنة فى حياتهما وبعد أن تركاَ ديوانيْهما وديعةً للدارسين ، ورأينْا من يكتفون بالقول بأنّ أبا تمام زعيم البديعيّين ، وأن البحترىّ قد حافظ على عمود الشعر ، وأخذتْ مسألة البديع هذه تُلاَكُ فى كلّ حديث مدرسىّ أو جامعى – إلّا ما عصَم الله – مجاورةً حديثَ عمود الشعر ، وقد يقرأُ القارئ هذه التلولَ المتراكمة من الأقوال ثم لا يهتدِى إلى الجوهر الخالص الذّى اهتدى إليه شكرى فى مقالَيْن حافِلين ! لأنّ شكرى الناقد ذو نظر استقلالىّ وليس أسيرَ المقرّرات الثابِتة يتبعُها دون فحص ، بل يفيضُ صَوْبُه الدافق من سماء نَيِّرة ذات إشراق .

---

(١) مجلة الرسالة : العدد [٢٨٧] ٢ / ١ / ١٩٣٩ م .

فأبو تمام [١] – مثلاً – فى رأى شكرى خطيبٌ عبقرىّ بصيرٌ بأساليب البيان وأثرها فى النفس وشعرُه شعرُ الخيال المَشْبُوب بنار الشاعرية ، والجيِّدُ من شعره يجمعُ بين القوة والحلاوة ، وإقناع الصنعة ، وهى ليست صنْعة ألفاظٍ فحسب ، بل صنعَة ألفاظ وخيالٍ وإحساس وذكاء ، وَنرىَ فى قوة الجيّد من شعره قوة الخطيب ، ولا نعنى أن الشاعر خطيب ، ولكن لشعره قوة تشبه وقع كلام الخطيب فى الآذان ، فكأنّ له صوتا يُسمع ، وإذا كان للشاعر بعض صفاتِ الخطيب فهى الصفات التى يقتربُ الخطيب فيها من عبقرية الشاعر ، وبصيرته النافذة ، وخياله المشبوب !

والبحترى ممثّل [٢] قدير يلوكُ حلو الكلام ويتأثّر به ، وينتشى بحلاوة الصناعة وهو وصّافٌ بماله من شهوةِ تَذَوّقِ المرئيّات بجمال فنه ، فإنّ الفنان يتذوّق مناظر الطبيعة والمرئيات عموماً كما يتذوّق الطعام مَن له ذوق خاصّ فى الطعام والشراب ، وقد تَغلبُ الصنعةُ على العاطفة فى شعره وتختلطُ الحقيقة بالخيال ! ولا يريد شكرى أن ينتقِص البحترى حين يَعدُّه صانعاً يمثل العواطف المختلفة تمام التمثيل ، لأنّ القول بهذه الصنعة هو الذى يُفسّر تناقضَ ما يجيءُ به من العواطف المتناقضة ، فأبو تمام يبلغُ صميم القلب ويعصِفُ بالعواطف ، أما البحترى فيمثّل دور العاشق المستهام ، كما يمثّل دورَ النائح المفجوع فى مراثيه ، ولم يكنْ صادق الصبابة فى التشبيب أو دامى الأحشاء فى الرثاء وإنما كانَ ممثّلاً ذا قدرةٍ وافتنان .

وابن الرومى لا يبلغ [٣] به التفانى فى فنّ الألفاظ وصناعتها والافتنانِ بها مبلغَ البحترى ، بل يستخدم ابن الرومى الألفاظَ استخدامَ السّيد الآمر لعبده ، محبوباً كان العبد أو غير محبوب ، ونراهُ بسبب لجاجته الفكرية أحياناً ، وتتبّعه أجزاءَ المعنى ، وتلمّسه دقائق الصور قد يفقدُ النغمة الشعرية وإن كان شعره يكتسب بذلك ميزةً جديدة ، وأصدقُ وصفٍ يُوصف به ابن الرومى أنه المصوّر الرسّام ، ولم يكن مصوّراً لمناظر الطبيعة فحسب ، بل كان مصوّراً فى كلّ أبوابِ

---

(١) مجلة الرسالة : العددان [٢٩٩ ، ٣٠٠] مارس سنة ١٩٣٩ م .

(٢) مجلة الرسالة : العددان [٣٠١ ، ٣٠٤] مايو سنة ١٩٣٩ م .

(٣) مجلة الرسالة : العددان [٢٩٢ ، ٢٩٣] فبراير سنة ١٩٣٩ م .

شعره مِن مدحٍ وهجو وغزل ووصف ، وهو أشدُّ ذوِى الفنون عجزاً عن حَبْسِ ما يجولُ فى خاطِره من الخواطر ، وهذا العجزُ يجعلُ صاحبه كأنّه أسوأُ خلقاً ونفساً من الناس ، وقد لا يكون .

أما المتنبى [1] فقد كشف شكرى فى بحثٍ واحد عن أسرارٍ غامضة فى نفسيّته واندفعَ إلى تحليل عواطفه تحليلاً مبتكرا تدرّج فيه من سُلَّمٍ إلى سلمٍ لينتهى إلى أمرٍ كلّىّ مشترك بين كثير من الناس ، فشكرى ينصّ على أن عظمة المتنبّى ترجع إلى الاعْتِداد بالنفس والاعتزازِ بها مع جاذبيّة البيان المعبر عن ذلك الاعتزاز ، ثم يفسُّر هذا الاعتدادَ فيراه مصحوباً لدى الشاعر بكثيرٍ من التقحم والفخر والادعاء ، ويرَى شكرى أنّ الاعتداد بالنفس قد لا يَصْحَبُه الفخر والتطاول كما عند (مونتانى) الكاتب الفرنسى ، ثم يتساءلُ شكرى : لماذا يهتمّ الناس بذوى الاعتداد والتطاول والفخر دونَ أصحاب الانطواء والتواضع ، ولماذا نقدّس أصحابَ الاعتداد النفسى ولو كانوا من المجرمين المدمرين ؛ فى حين أنّنا نحارب كثيراً مِن أهل الفضل وأصحاب المزايا ؟ ويُجيب الشاعر عن سؤاله بأدلّة استمدها من تاريخ المتنبى ذاته ومواقفه ، ويجعلُ ختامَ حياته على هذا النحو الأليم مظهراً قوياً من مظاهر الاعتداد الكبير ، والدارسُ الكبير حين اهتمّ بتحليل نفسيّة المتنبى ، وما عمرت به حياته من أحداث لم يُغْفِل شعر الشاعر ، لأنّه اتّخذ منه هادياً له ، يكشفُ عن نفسه المستكنة الخافية ، دون مبالغة مُتَّعسِّفةٍ فى الاستنتاج ، بل بحبٍّ عاطف مصدره الإعجاب !

ومن طريف ما قاله شكرى عن أبى نواس أنّ الصفة المميّزة لشعره هى صفةٌ ناشئةٌ مِنْ طرب الفنان بفنّه فهى صفةٌ تنْتقِلُ من النّفس إلى اللفظ ، وهى صفةٌ تُدرَكُ أكثر مما تُوصف وتراها فى كلّ باب من أبواب الشعر حتّى باب الزهد ، فإنّ للفنان أيضا طرباً بالزهد كطربه باللهو ، وهذا كلامٌ لم يقله أحدٌ عن أبى نواس قبل شكرى ، وقالَهُ بعدَه من أخذُوه ولم يُشيرُوا إلى مَصدره ومن أغْربِ حديث شكرى عن أبى نوُاس أنّه جعلَ صنعةَ أبى تمام البيانيّة احتذاءً لصنعة

---

(١) مجلة الرسالة : العددان [٢٩٠ ، ٢٩١] يناير سنة ١٩٣٩ م .

أبى نواس ، وهو قولٌ انفردَ به ، لأنّ نقدَةَ الأدب من قبله يجعَلُون أبا تمام تلميذاً لمسلم بن الوليد الذى أُغرم بالبديع إغراماً فتح به طريقَ أبى تمام لزعامةِ هذا اللّون من ألوان الصياغة ، وقد أكثرُوا من الموازنة بين أبى تمام ومسلم ليدلّوا على تأثّر اللاّحق بالسابق تأثّراً تنطقُ به الشواهدُ الماثلة لدَى الشاعريْن سابقاً ولاحقاً ، ولكن شكرى قد لاحظَ من المشَابه بيْن شعر أبى نواس وأبى تمام ما جعله يقول [1] :

« وإذا كانَ أبو تمام قد لقّبَ أبا نواس بالأستاذ والحاذق فلأنّه هو الذى فَتح باباً توغل فيه أبو تمام وأغْنى بابَ الصّنعة البيانية ، وهو حاذقٌ فيها لأنّها كانتْ وليدَة طرب الفن ، فكانتْ طبيعيّةً غير نَابية حتى لا يكادُ القارئ يحسّها إلّا إذا بَحث عنها عامدا ، فهو فى فنّه كالممثّل الحاذق يُنسيك أنّه ممثل ، كما أن المصوِّر البارع يُنْسيكَ أدواتِ فنّه مِنْ دَهانٍ وزيتٍ حتى لتحسب أنّك ترَى جزءاً من أجزاء الطبيعة والشاعرُ الحاذق أيضاً ينسيكَ صنعتَه البيانية مع إجادته فيها » .

وتعليقاً على ذلك أقولُ ، إن طربَ أبى نواس فى فنّه يُذهلُ قارئه عن خوافى الصنعَة البيانية لديه حقا ، فلا يكاد يحسها القارئ ، إلا إذا بَحث عنها عامداً ، أما أبو تمام فإنّ طرَبه الفنّى لا يُنسى قارئه الصّنعَة بل يجدُها أمامه وكأنها طرازٌ معلم مشتهر فهو فى غير حاجةٍ متعمدة إلى البحث عنها ، وكذلكَ كان مسلمُ ابن الوليد فإن صنعته من الظهور بحيثُ يتضّحُ معها أثرهُ البارز فى أبى تمام ، مع أنّ هذا الأثر النواسى لم يتضّحْ بهذه الجهارة لَدى ناقدٍ قبل شكرى ، وفى مدائحِ أبى نواس ألوانٌ من هذه الصنعَة التى أشارَ إليها النّاقد الكبير ، لأنّه فى هذه المدائح كان يُرضِى الممدوح قبلَ أن يُرضى فنّه الذّاتى ، فيأتِى بهَا على النّهْج المتعارف قوةَ أسرٍ ، ومَتانَة أداء ، وتتخلّل الصنعة ما يأتى به فيدركها البصير ..

أما البحث الشامل الذى نشره شكرى بثلاثة أعداد من مجلة الثقافة تحت

---

(١) مجلة الهلال : ص ١١٠٦ عدد أغسطس سنة ١٩٣٩ م .

عنوان (الرثاء فى شعر العرب [١]) فقد دلّ بوضوح على إحاطةِ شكرى بالشعر العربى فى شتّى عصوره ، لأنّه قدّم مختاراتٍ من خمسين قصيدة فى الرثاء ، تتابعتْ منذُ العصر الجاهلى حتى آخِر عُهود الازدهار الشعرى ، وذلك يدلّ على أن الناقدة الكبيرة الدكتورة سهير القلماوى قد فاتَها هذا الضربُ من البحث التأملى لدى شكرى إذ لوْ قرأتْ بحثه الشامل عن الرثاء فى شعر العرب ما قَرّرتْ قِلّة اطلاعه على الأدب العربى على نحوِ ما أشرْنا إليه من قبل ، وللأستاذ شكرى فى هذا الباب تعليقات نفسية وأدبيّة تدلّ على حصافةٍ بالغة ، وفهمٍ دقيق لرسالة الشعر ، وتفريق واضح بين المطبوع والمصنوع من قصائدِ الرثاء ، وقد بدأ الحديثَ بنبذةٍ عن شعر الوجدان ، وقالَ إنّ من الصعْب أن نَقْصر صفةً من صفات الشعر على عصر من العصور ، ولكنّا نقول على وجه الإجمال إن رثَاء المتقّدمين كان أكثَر نصيباً من الوجدان ، وصدِق البصيرة والعاطفة ، وأنَّ شعر العباسيين كان أكثرُه رثاءَ تكسّبٍ إلاّما كان من رثاء قريب أو حبيب ، وكانَ رثاءُ التكسب فى شعر بعضهم أعظمَ منزلةً فى الشعر من رثاءِ أقربائهم ، وكانتْ تغلبُ على شعرهم جَودةُ الصناعة . والتأنق فيها ، ثم ضَعُفَتْ القدرةُ على الإتيان بالصنعة الفخمة فكثرتِ المبالغةُ والمغالطة اللفظية والمعنوية ، وقد يلتبسُ على القارئ نوعٌ من مبالغةِ العاطفة القوية ، ونوع من مبالغة العاطفة الكاذبة ، والحقيقة أن المبالغة فى كلّ أنواعِ الشعر هى فى شعر العبقرىّ الصادِق الصنعَة ، وفى شعرِ من تُسيِّره العاطفة المالكة له من أبدع ما يقال ، ولكن الشاعر الصانع يكونُ من الحذر فى تلك المنزلةِ الجليلة كمن يطلّ على الشفير الهارى ، وخطوةٌ واحدة قد تُسْقطه إلى الحضيض .

ولإيضاح هذه الحقائق النقدية التى افترعَها شكرى افتراعاً من وحى تأملاتِه الذّاتية الصادقة ، أخذ يستعرضُ شعر الرثاء أو ما اختارَه منه استعراضَ الناقد المتذوق ، إذ يُشيرُ إلى القصيدةِ الذائعة أو المهجورة ليقفَ عند أبياتٍ منها تُحمد أو تُنقد بالدليل ، فهو مثلاً يُعجب بقصيدة جليلة بنت مُرّة فى رثاء أخيها كليب ، ويُقرّر أنها كانتْ بين شقّى الرحا ، أو بين المطرقة والسندان ، لأنّها شقيقة

---

(١) مجلة الثقافة : الأعداد [١٩ ، ٢٠ ، ٢١] مايو سنة ١٩٣٩ م .

القاتل وزوجُ المقتول ، ويردّ على من يقولون بانتحالها – ومنهم الدكتور طه حسين – لأنّها فى رأيهم ذاتُ صياغةٍ سهلةٍ لا تُناسب الدّيباجة الجاهلية ، يردّ على هؤلاء فيقول : إنّ الشعر الجاهلى ليس كلّه على مستوى واحد فبعْضُه جزل وبعضُه سهل وقصيدةُ جليلة ذاتُ العاطفة الأنثوية الرقيقة تعبّر عن طبيعتها السهلة ! كما يقفُ وِقفةً بارعة عند قول الفارعة أخت الوليد بن طريف فى رثائه :

أيا شجرَ الخابور مالكَ مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريفِ !

فيقول فى صدق : إنّ قولهَا إنّ الشجر مُورِقٌ كأنّه لم يَحزن ، أصدقُ فى فن الشعر وأوقَع فى النفس من قول من يقول إن الشجّر قد صوّحت أوراقُه ، وقد كرّر هذه الملاحظه عندما وَقف عند قولِ مَن رثى يزيد بن مزيد الشيبانى فقال :

أحامى المُلْك والإسلام أوْدَى فما للأرض ويحك لا تَمِيدُ ؟!

حيث يقولُ إنه يذكّرنا بقول الفارعة (أيا شجر الخابور مالك مورقا) وحين استجادَ الشاعرُ قول العتابّى فى رثاء جاريته :

قلتُ للفرقدَيْن واللّيلُ مُلْتِ سودَ أكنافه على الآفاق
إبْقَيَا ما بقيتُما سوفَ يُرمَى بيْن شخصيْكُما بسَهْم الفراق

قرنَ ما قَال العتابّى بنظيرٍ له من قول مطيع بن إياس (أسعدانى يا نخلتىْ حلوان) وقولِ شهاب الدين الحلبى (قلتُ للبدر المنير وقد . . غاب من أرْبَى عليه سنا) لاتّحاد المنحى فى القصائد الثلاث .

ثم ألمّ ببعض الجيّد من رثاء دعبل والبحترى وابن الرومى فاستجاد قول الأخير :

لِمنْ تستجدّ الأرض بعدكَ زينةً فتصبحُ فى أثوابها تتبرّج !

وأخذَ عليه أنه أفْسَد قصيدته بفُحشٍ صارخٍ ، ذكرَه فى ثَلْب الأعداء ، وهذا حقّ ، ثم وقفَ وقفةً صائبةً عند قول المعرى فى رثاء والده متحدثاً عن نفسه :

كأن ثناياهُ أوَانِسُ يُبتغَى لها حُسن ذكر بالصيانة والسجن

فقال إنّ هذا تخيّلٌ بديع ، ولكنّه بعيدٌ عن عاطفةِ الحزن لموتِ أبيه ، ومضىَ فى استعراضِ البديع حتى وصل إلى أبى الحسن التهامى فقالَ إن قصيدتيْه فى رثاء ولدِه من أعظم ما قيل فى رثاء الأبناء ، وقدّم نموذجيْن منهما ، وقد وَقَف عند قول ابن النّبيه المصرى :

الناسُ للموتِ كخيلِ الطّراد والسابق السابق منها الجواد
والموتُ نقّاد على كفه جواهرُ يختار منها الجياد

فقالَ إن هذه القصيدة من الرثاء الّذى تتّفقُ فيه مغالطةُ العاطفة ومغالطةُ الصّنعة ، وأنا أفهم جيدا كيفَ تأتِى مغالطةُ العاطفة ، أما مغالطةُ الصنّعة فكانتْ فى حاجةٍ إلى مزيد إيضاح .

ونحن نلمح مذهب شكرى الشعرىّ فى نقده الأدبى ، كما نلمح مذهبه النفسىّ حين يذمّ المبالغة والمغالطة مؤكّداً أن رسالة الشّاعر هى الأمانةُ المخلصة فى تَصْوير النوازع الإنسانية تصويراً صادقا لَا مُبالغةَ فيه ولا إغراق ، فمهيارُ الديلمى مُسِفٌّ إذ يقول :

غار المحبون من أبصار غيرهمُ ضنًّا ، وغِرتُ على لمياء من بصرى

والبحترى مغالط إذ يقول :

فقلْ لِنَسيمِ الودّ عنى فإننى أعاديك إجلالاً لوجه نسِيم

لأن المحبّ لا يمكن أن يغار على حبيبته من بصره كما زَعم مهيار ، ولأنّ الإنسان يحبّ من يذكّره بصورة حبيبته ولا يعاديه كما زعم البحترى ، وكلا الشاعرين فى اتجاههما ملفق .

هذا ، وليسَ مجالُ المقارنة عند شكرى مقصوراً على أدبٍ دُون أدب ، فقد يمتدّ فى رحلةٍ شائقةٍ تشملُ آفاق الآدابِ المختلفة ، فإذا تحدّث شكرى عن ذئبِ الشريف ذكر ذئب الفرزدق وذئب البحترى ، وقد قرأتُ له فى مجالٍ آخر تحليلاً لشاعرٍ فرنسى خصّ الذئب المُحْتَضر بإشفاقه ، وهو لا يكتفِى بالشّعراء بل يشمل كل فنان ممثّلاً أو مصوّرا أو رسّاما متَى وُجِدَ وجهٌ للشبه بينه وبين شاعرٍ يتحدث عنه ، وشكرى باتّجاهه التحليلى إلى فرائد الأدب العربى ، يردّ على من يرجفونَ به جَهْلا بكنوزه ، ويؤكّد أنه اعتَمد فى تكْوينه الثقافى على

نصيبٍ كبيرٍ من التّراث الشعرى العربى فكانَ أحَد رَافِدَيْن هامّيْن من روافد توْجيهه الريادى ، أما ثقافتهُ فى الدراسة الإنسانية التى تشملُ علوم النفس والاجتماع والتربية والتاريخ والفلسفة ، فهى ثقافةُ الشاعر الذّى اتسعت آفاقه لتشملَ المحيط الإنسانى ، كما أنّها ثقافةُ الناقد الذى قدّر آثارَ الوراثة والبيئة والثقافة فى تكوين الأديب ، ولو لم يكنْ شكرى ناقداً يُفصِح عن آرائه الفنية تأييداً وتفنيدا لكان شعرُه دليلاً على امتداد هذه الثقافة ، لأنّها أورثته من العمق والسّعة ما جَعلَ ذوى الأذهان الضيّقه يَحِيدُون عن ديوانه كما يَحيدون عن شعر أبى العلاء والعقاد ، وليسَ الذنبُ ذنبَ هؤلاء ، ولكنه ذنب النظر الضيق والأفق المحدود .

أما مقالات شكرى عن النزاع الأدبى الذى اشتهر بين القديم والجديد فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد كانت ذات أثر بارز فى توضيح وجهة النظر التجديدية ، لأنّ المعركة قد بدأتْ منذ ظهور كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، وخاضَهَا المجدّدون والملتزمون على صفحات الجرائد اليومية مما جذب إليها أنظار القراء جميعا ، ثم تجددتِ المعركة فى أواخر الثلاثينيات ، حين شبّ العراك النقدى بين أنصار الرافعىّ وأنصار العقاد ! ولو اقتصرت المعركة على ما جاء بالشعر الجاهلى وحده ما اضطر الأستاذ عبد الرحمن شكرى إلى اقتحامها ، ولكنّه وجد الحركة التجديدية فى الشعر المعاصر تتعرّضُ لنقدٍ يراه غير صحيح ، وهو أحدُ زعماء التجديد الشعرى المعاصر ، فاضطّر إلى أن يُلقى بدلوه فى الدلاء ، ليكشف عن أوهامٍ أدبيّةٍ كادت تقومُ مقام الحقائق ، وتوالت مقالاتُه المتتابعة على صفحات مجلة الرسالة فى أدب لفْظٍ ، وسماحة نفس لا تعهدُهما المعاركُ الدائرة فى هذا الاتجاه من قبل ومن بعد ، وقد كان زاهداً عيوفاً عن انتشار صِيتِهِ ، حيثُ لم يكشف النقاب عن آرائه فى توقيع صريح باسمه ، إذ رمز إليه رمزاً متواضعا لايدركه غير الخاصة من متابعى جهوده النقدية ، وكانَ الأستاذ أحمد حسن الزيات من الذكاء بحيثُ استطاع أن يُوحى للفطناء بحقيقة الكاتب الكبير ، إذ جعل وصف (أحد أساطين الأدب الحديث) لازماً يُطالع القارئ تحت كل عنوان ، وأساطين النقد المعنيون بمسألة الجديد من الأحياء هم العقاد والمازنى وشكرى وطه حسين ، وهمْ باستثناءِ شكرى لا يوقّعون المقالات النقدية بغير أسمائهم الصريحة ، وإذنْ فقد تحدّد اسم شكرى تحدداً يزكيّه ظهور سماته النقدية

تعبيرا وتفكيرا وتصورا واتساع نظر ، وكان استتار اسم شكرى آيةً من آيات التوفيق ، لأنه جذبَ القارئ لقراءة هذا الّذى يقتحم اللّجج الصاخبة ، لا ليرجع بالظفر الصاخب حين يقول هأنذا ، بل ليمحّص الحقائق كما يراها من وجهة نظره ، وحسبُه أن تستقر آراؤه فى الأفهام حين تؤيّدها الحجج ، ولا يعنيه أن يكونَ كالأعشى حين قال

وقصيدة تأتى الملوك غريبة قد قلتها ليقال مَن ذا قالها ؟

وقد لحظَ الأستاذ شكرى أنّ النقاش فى معركة القديم والجديد بيْن أنصار الرافعى وأنصار العقاد قد اتّجه وجهةً منحرفة غير وجهته الطبيعية ، فمزَجَ الدين بالأدب مزْجاً غريبا ، بمعنى أن زعماء القديم جعلُوا أنفسَهم وحدهم المدافعين عن قيم الدين ، كما أوضَحوا أنّ زعماء التجديد لم يَعْبئوا بمقرّراته ، وقد قوّى من هذا الظن ما انحرف إليه بعض الدّخلاء من أنصارِ التجديد حينَ لغطوا بمسائل زائفة عن حقائق الوجود تُوحى بالعبث والاستهتار ، فأوْقَعُوا معهم البرءاءَ موقعَ الرّيبة والاتهام ، ومكّنوا أنصار القديم من مقاتلهم ، وشُكرى وصاحباه – المازنى والعقاد – بريئون من عبث هؤلاء الأدعياء .

لذلك اتجّه الناقد الكبير مُنافحاً عن مذهبه التجديدى ، وقد رأَى فى مقالات الأستاذ الجليل والباحث المفضال الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن القديم والجديد (وقد توالت على صفحات الرسالة فى أعداد متصلة ، سنتى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ م) رأى مجالاً فسيحاً للمناقشة وإبداءِ الرأى ، فتعقّب أفكارها ، وعارضَ أهدافَها دونَ أن يزلّ به قلمه إلى استخفافٍ أو تعريض ، وسنقدّمُ من كلام الأستاذ الجليل محمد أحمد الغمراوى ما يكفى لإعلان مذهبه ، وتوضيح فكرته ، ثم نلخّص ردودَ الأستاذ شكرى تلخيصًا مقتضبا يَرْسم الملامح ، ويضع الخطوط دون أن نتطرق إلى استيعاب مفصل قد يضيق عنه المجال .

يقول الأستاذ الغمراوى : « إن المسألة فى الأدب مسألة دين وروح ، ففريقٌ يجعل روح الأدب شهوانيا بحتاً ، يتمتع صاحبه بما حرّم الله وأحل ، لا يفرقُ بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما يلقى فى ذلك من لذة وألم وغيرهما من ألوان الشعور ، ويُخرجُ ذلك للناس على أنه هو الأدب ، وفريقٌ يريد أن يحيا

الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدّها الله ، وبمظاهرها المختلفة كما فطرها الله . ويصفُ ما يتمتع به من تلك وما يلقى ويتجشم فى سبيل ذلك ، غير ناسٍ لحظةً أن الوجود كله من الله ، وأن الدين كله لله ، على أنه الأدب ، وأدب الفريق الأول هو ما يسمّونه بالأدب الجديد ، وأدب الفريق الثانى هو ما يسمونه بالأدب القديم » .

هذا لبابُ ما قرره الأستاذ الغمراوى وقد أفرغ صفحات كثيرة لتأييده وتثبيته ، وأنا مع مخالفتى إياه أحترمُه وأجلّه ، وأعرف أنه يصدر فى جميع ما يكتب عن عقيدة راسخة ، وإيمان مطمئن أخطأ أم أصاب ، وقد ردَّ عليه الأستاذ شكرى ردّاً بليغا منصفاً ، تجلّت به النظرة الواسعة والعمق البعيد ، فذكر أنّ النفس البشرية واحدةٌ فى كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة من شذوذ الآحاد بالنقاء النادر ، أو النجاسة البالغة ، وتلك حقيقةٌ يقرّرها العلم النزيه عن هذه النفس العجيبة ، فلا عجبَ أن يصدر عنها المجون والنزق ، والسمو والترفع فى كلّ مكان وزمان ، وإذا كانَ الأدب صورةً للنفس ، فقديمه وجديده سيان فى تصوير النقائص والمثيرات ، ولن يمتاز قديم عن حديث بالتصون والاحتشام ، والاستقراءُ التام لعصور الأدب يؤكد أن القديم يطْفح بما تضيق به المثل الرفيعة ، ويَنْدَى له الخلق النبيل ، فلامرىء القيس ، وهو من أقدم الشعراء فى الجاهلية مجونٌ وفُحْشٌ تضيق بهما صدور المحافظين ، وقد تواكبَ بعده خلفاؤه فى ميدانه يُسفّون وينخفضون إلى ما لا يرضى عنه الأستاذ الغمراوى ، ولديه إذا أرادَ مُثُلٌ كبيرة من أهاجى الفرزدق وجرير وسوانح بشار وأبى نواس ومطيع بن إياس ، ومتطرفات ابن الرومى وأبى تمام والبحترى من أئمة الأدب القديم فكيف يكون هذا الأدب بعد ذلك ملاذَ التصون والاحتشام ، وقد عَجَّتْ زواخره بأمواج صاخبة تتلاطم بالنزوات والشهوات ، وكيف يكونُ الأدب الأورى وحده فى منطق الأستاذ الغمراوى وشيعته طريق هذه المفاسد ، مع أنّ أصحاب الأدب الجديد ، قد قرءوا الأدب العربى قبل أن يقرأوا غيره فى لغاته الأجنبية ، وأثّر فى أذواقهم وميولهم بما لا يوازى به أدب مغترب بعيد ؟

---

(١) مجلة الرسالة : العدد [٢٦٩] ٢٩ / ٨ / ١٩٣٨ م .

ثم لماذا نجعل جميع الأدب الأوربى فى منزلةٍ واحدة ، واتجاه ثابت لا ينحرف عنه ، وقد طرأ عليه من التطورات ما غيّر سلوكه وعدّد مشاربه ، وهو بذلك يقتربُ من الأدب العربى اقتراباً واضحاً ، فالأدبُ الإغريقى كالأدب الجاهلى سهولة وخيالا ، والأدبُ الأوربى الحديث أقربُ إلى الأدب العباسى حريةً وانطلاقا ، والأدب الرمزى الأوربى يقربُ كثيرا مما كتبه الأستاذ الرافعى فى حديث القمر ، وهو زعيمُ الأدب القديم فى العصر الحاضر دونَ نزاع ، فإذا كانت هذه المشابهة متوفرةً فى الأديبْن المقارنيْن فلماذا نقصر الشر على الأدب الأوربى دون سواه .

لقد شَبَّهَ شكرى الذين يمقتون الأدب الغربى ويحرّمونه لجونه ثم يبيحون لقرائهم ما كتبه الداعرون من شعراء الأدب العربى بمن يأتمن لصًّا مصريا على ماله ، ثم يحذّر من لصّ أجنبىّ مع أن النتيجة واحدة فى الحالتين ، إلا أن عين الرضا عن كل عيب كليلة ، ونحن نعجب بهذا التشبيه الواضح لأنه يقرِّبُ المراد من أقصرِ طريق ، وإنْ كنا نؤكد أن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى لا يُبيح الأدب العربّى الداعر تماما ، فهو صاحبُ هدفٍ خلقىّ لا ينحرف عنه ، وحملتُه على الأدب المكشوف لا تخصّ أدبا دون أدب، وما أظن الأستاذ شكرى إلاّ متحدثا عن سواه فى هذه النقطة بالذات .

وكان طريفاً من الأستاذ شكرى أن يرجع التجديد فى الأدب المعاصر لا إلى الشعر الأوربى وحده ، بل إلى الشعر العربى القديم ، فالشاعر الجاهلى لم يكنْ يتكلف فى صنْعته ، أويحتفل فى صياغته ، [ولا أدرى لماذا نَسِىَ شكرى مدرسة زهير بن أبى سلمى] بل ينظم الشعر بالعاطفة ويبحث عن خواطر النفس بدل التنميق والتجويد ، وهذا ما يفعله الشاعر المعاصر إذْ تمرّدَ على صور الشعر العباسى ونبذَ الصنعة وراء ظهره ، فأولَى به أن يُنسب فى اتجاهه إلى الأدب العربى القديم لا إلى الأدب الأوربى الحديث ، وَفِى بعض هذا الكلام مطابقةٌ للواقع كما فى بعضه الآخر إسراف واضح ، لأنّ الشاعر القديم مهما استلهم العاطفة ، واستبطن النفس ، فقد كانتْ خواطره مبعثرة شاردة ، وسوانحُه طائرة عابرة ، ولو اعتمدَ عليه المجدّدونَ وحده ما جاوزُوه أو قاربوه ، ولكنّهم فاقوه قوّةً وعمقا

بما أورثهم الأدب الأوربى من تحليل عميق للنوازع ، وتشريح دقيق للأهواء ، فكيف يكون التجديد المعاصر رجعة إلى القديم ؟ إلا إذا أراد الأستاذ شكرى أن يُقرّب المسافة بين العصور المتباعدة ، فى الأدب الواحد ، ببعض التّسامح عن طريق التّشابه الجزئى فقط ، وهذا ما نسلّم به فى دائرته المحدودة دون شطط أو نزوح .

وأنت تلمس فى أجوبة شكرى ثقافةً عميقة متشعبة يمدها النظر الثاقب والعقل البصير ، وهو يُتْحِفك بالطريف حينَ يُخبرك أن الأدب العربى قد فعلَ بالأدب الأوربى فى القرون الوسطى ما يفعلُه الأدب الأوربى بأدبنا المعاصر فى القرن العشرين ، فقد كانَ المحافظون من أدباء المسيحية يخشوْنَ على الدين والأخلاق مِنْ بعض المجون والخلاعة فى الشعر العربى حين وَفَد إليهم عن طريق الترجمة من الأندلس ، ويرونْ فى الأدب العربى إباحيّة خلقية لا تتفق والتقاليد ، فهو كالأدب الإغريقى القديم فى اجترائه وشططه ، ومِن ثَمَّ حُورب الأدبِ العربى من المحافظين إذ ذاك ، ولكنّه رغم هذه المحاربة قد مثّل دوره ، وأدّىَ رسالته فى إيقاظ الأدب الأوربى ، ثم دارتِ الدائرة عليه فى العصور المتأخرة من دول الممالك المتتابعة والعصر العثمانى حتى جاء الأدب الأوربى الآن يردّ له الجميل السالف ، ويعطيه ما سبق أن استولى عليه .

وواضِحٌ أن جميعَ ما ذكره الأستاذ شكرى ينتهى إلى هدف معيّن ، هو أنّ التجديد شىء ، والإباحية شىء آخر ، فإذا كانَ لأنصار الجديد نصيبٌ واضح منها ، فأنصارُ القديم يحتفظون فى تراثهم بمثل هذا النصيب ، وإذا كانَ الأدب الأوربّى قد وَفَدَ ببعض الآفات الخلقية على الأدب العربى فهو لم يقدّم له غيرَ بضاعة معروفة متداولة ، فالمسألة إذن ليستْ مسألة خُلُق ودين ، ولكنّ الأدب تعبير عن مشاعر قد تكون عالية وقد تكون هابطة ، وهى فى حالتَيْها لا تتقيّد بقوم دون قوم ، ولا بلغة دون لغة ، فالأمر سواء .

على أن الأستاذ شكرى يلتفتُ إلى ناحية هامة حين يعلن أن النفّاق فى الأقوال يجعلُ من الفاسد العربيد قِدّيساً طاهرا ، فكثيرٌ من الأدباء يخالفُون حقائق نفوسهم إذ يمتدحون الفضيلة ، ويلْهَجون بالشرف وهم فى واقعهم النفسىّ أبالسةٌ

مَردَةٌ ، لا يميلون إلى خير ، أو يعتصمون بمعروف ، بل إن بعض المتدينين يُسرفون فى الغيبة والنميمة إسرافا لا يخلوُ من اللذّائد النفسية المشتهاة لديهم ، ثم هُمْ بعد ذلك ينظمون القصائد فى الدّعوة إلى الفضائل الرفيعة ، فكيف يحكم الأستاذ الغمراوى على شاعرٍ نظم فى الزهد والورع بالمثاليّة والطهارة ، ويَعُدُّ مُمّوهاتِه المتكلفة آية الآيات ، وهو لا يصدرُ عن إحساس صادق مخلص ؟ لا بد إذن من دراسة مستفيضة لتاريخ الشاعر وسلوكه ، ثم نفسّر بعد ذلك أدبه التفسير اللائق بواقعه ، لنضعه فى موضعه الصحيح !

هذا موجزٌ مقتضَبٌ لبعض آراء شكرى فى القديم والجديد ، ونحنُ نعرضها هذا العرض السريع لنلفتَ الأذهان إلى حقائقها الأصيلة . ثم لنجعلَ من عفةِ لفظهِ فى النقد ، ومهارته فى تحديد ما يريد أسوةً يَحْتَذيها النّقدة من الكتاب ، فقد رباً بنفسه عن المهاترة والتزيّد ، بل إنه ليسوق انتقاده الصائب مشفوعاً بالثناء على مناظره ، فيقول عنه [1] مثلا :

« يجمع الأستاذ الغمراوى فى نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق إلاّ لقليل من المهذّبين الأفاضل ، فهو يَغَارُ على الفضيلة والدين ، ويجمع إلى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث فى المجادلة بالتى هى أحسن ، وهذه رعايةٌ من الله ، نرجو أن يديم عليه نعمته بها » .

وكذلك كان الغمراوى حقا ، وكذلك كان شكرى فى مناظرته فكلاهما ذو خلق نبيل .

د . محمد رجب البيومى

---

(١) مجلة الرسالة : العدد [٢٩٤] ٢٠ / ٢ / ١٩٣٩ م .